

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية وجامعة قسنطينة 3
بإشراف رابطة الجامعات الإسلامية
تنظم ملتقى دوليا:
"العمارة والفنون الإسلامية في الجزائر"
يومي 61 61 جمادي الثاني 6331 الموافق ل 61 61 أفريل 1063 بقسنطينة- -

استمارة المشاركة

الاسم.: لطيفة

اللقب.: بن سعيد

الرتبة.: أستاذ مساعد -أ-

التخصص.: عقيدة إسلامية

مؤسسة العمل: جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الهاتف: 0696321328.الفاكس.....

العنوان البريدي: حي الهناء رقم 60، عين البيضاء ولاية أم البواقي

البريد الإلكتروني: latifabn@gmail.com

عنوان محور المداخلة: مدخل للعمارة الفنون الإسلامية

عنوان المداخلة: البعد الإيماني للعمارة و التعمير

ترسل استمارة المشاركة والبحوث والسيرة الذاتية قبل 01 مارس .: 1063 عن طريق العنوانين

الإلكترونيين الآتيين:

frmoultaka3ce@yahoo.

emir.dz-a.boukhalkhal@uni

لطيفة بن سعيد ماجستير في العلوم الإسلامية تخصص عقيدة الإسلامية سنة 2003، تحضير بحث دكتوراه حول "الجمال في عقيدة التوحيد و دوره في الحياة" أستاذ مساعد -أ- بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية منذ سنة 2007 بكلية أصول الدين قسم العقيدة و مقارنة الأديان، عضو في مختبر العقيدة و مقارنة الأديان بكلية أصول الدين. مهتمة بالدراسات الجمالية.

ملخص الورقة

البعد الإيماني للعمارة و التعمير

أقصد بالبعد الإيماني للعمارة التعمير. تلك البواعث العقدية التي دفعت الفنان و المعمار المسلم إلى تصميم تلك النفايس العمرانية بذلك التناسق و التناغم و الانسجام و الوحدة، و بذلك الثراء الفني المتميز و الفريد الذي رسم معالم هويتها و أصالتها، و طبع شخصيتها بروح تكاد تغرد مع الكون كله و مع الكائنات كلها لحنا واحدا هو نشيد العبودية لله عز وجل القائل في محكم تنزيل: ﴿ تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ الإسراء 44

تناولت في هذه الورقة عرض لمرتكزات الإيمان التي كانت المحرك الأول و الموجه الروحي لخيال المعمار في انجاز تصميماته المعمارية و الزخرفية و هما توحيد الله عز وجل و دوره في تشكيل بنية العقل المسلم، و العبادة التي تصطبغ بها حركة الإنسان و سلوكه كله، حتى لا تترك فيها مجالا إلا وجعلته قاصدا إلى الله خالصا له ، و متناغما مع حركة الكون كلها في تحقيق إرادة الله، و الذي يقتضي تنزه الجهد التعميري عن العبثية التي ترمي به بعيدا عن غائية الخلق.

تناولت كذلك إفرزات هذا الإيمان في مجال الفن الإسلامي عموما و العمارة الإسلامية بصفة خاصة، و التي تمثلت في 1/التجريد و المحاكاة أي فيما يتمثل التجريد و أين تكمن المحاكاة 2/الوحدة و التنوع، 3/الانتفاع، 4/الإبداع، 5/الذوق الجمال ، هذه العناصر التي كان لها الدور الأساس في اكتساب العمارة الإسلامية بعدها الروحي و خصوصيتها الحضارية المتميزة.

الأستاذة: لطيفة بن سعيد:

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة الجزائر

قسم العقيدة و مقارنة الأديان

عنوان الورقة: البعد الإيماني للعمارة و التعمير

تعتبر العمارة الإسلامية من بين أكثر الفنون ارتباطا بالإنسان، إذ هي وليدة احتياجاته المختلفة الإنسانية و الاجتماعية؛ كالمسكن و العبادة و التعليم و الاستشفاء و السياحة و حتى حاجاته العسكرية لذا فقد أخذت منه اهتماما بالغا، إذ لم يكتفي منها بما يلبي ضرورات الحياة و احتياجاته القاهرة، بل راح يتفنن في بنائها، فيسبغ عليها من آيات الجمال و الزينة، و ينفث فيها من روحه و ييث فيها خلاصة خبرته و تجاربه حتى خرجت للوجود نفائس و درر، لا تلبي احتياجاته المادية و الجمالية و حسب، بل و تصدح بروح التعالي لتخبرنا أنها لم تبنى من الحجارة فقط، بل شيدها المعمار بروحه و عقله و ذوقه حتى باتت سجلا للجمال و الحضارة و الأصالة.

لقد شغلت العمارة الإسلامية اهتمام كثيرا من الباحثين خاصة منهم المستشرقين، انصبت معظم دراساتهم في بحث أصول هذه العمارة و خصائصها، و رغم أن لهم الفضل الكبير في الكشف و التعريف بهذا التراث المعماري و الحفاظ من الاندثار، إلا منهم من أدرك سر روعة تلك العمائر و جمالها و خصوصيتها، رغم اقتباسها بعضا من مواد عمارة الحضارات السابقة و قليل ما هم ، و أغلبهم لم يستطع -رغم قضائه السنين الطوال في دراستها- أن يتذوق الروح التي صنعت تلك الروائع المعمارية، بل راح يستأصل منها كل خصوصية أو أصالة بإرجاع كل عنصر من عناصرها إلى أصول بيزنطية أو رومانية أو فارسية... و على رأس هؤلاء جميعا أرشيبالد كامرون كريسويل الخبير بالعمارة الإسلامية .

من هذا المنطلق فقد أصبح الاهتمام بتراثنا المعماري بجهود أبنائه من الضروريات الحضارية، حتى تتم دراسته و قراءته بنفس الروح التي سهرت على إنجازه، بغية تحقيق أصالته و روحه التي أصبحت أثرا من الآثار الساكنة في كيان ذلك التراث، و بالتالي بات الكشف عن تلك الروح التي صنعتها قيمته من قيمة تلك المنشآت ذاتها باعتباره يشكل جانب من أهم جوانب الحضارة الإسلامية الذي يمنحها خصوصيتها و تميزها.

انطلاقاً مما سبق، إذا كانت هذه المنشآت المعمارية تحكمها منظومة من القوانين الفقهية و العمرانية و الهندسية و الفنية و التي لا يتم البناء إلا على قواعدها، فما هو موقع المرجعية العقدية من هذه المنظومة المتكاملة من القوانين، و ما هي الأسس الإيمانية التي نفخت الروح العمارة الإسلامية و كانت باعث المعمار المسلم في إكسابها خصائصها المميزة ؟ ما هي إفرزات الإيمان التي تشبع بها المعمار المسلم فصبغت بها عمارته؟ هذه الأسئلة سنحاول الإجابة عنها من خلال هذه الورقة البحثية.

أولاً: مرتكزات الإيمان:

الإيمان هو القاعدة التي يرتكز عليها الدين الإسلامي، لما ينبثق عنه من تصور و سلوك و عمل، لذلك أجمع العلماء على تحديد معناه في ثلاث مقومات أساسية تشكل مجتمعة حقيقة الإيمان و كماله، و هي اعتقاد بالجنان: و هو ما يربط عليه الإنسان قلبه من حقائق الوجود الله و الإنسان و الكون و الحياة، ثم ما يتفرع عنها و لا يُستغنى عنه بسابقه من نطق باللسان: ابتداء من النطق بالتوحيد و بسائر ما يتفرع عنه من أقوال تنبثق من جوهر التوحيد، ثم ما يتبعه و يكمله من عمل بالأركان: و هي الجوارح التي تعمر الوجود كله و الأرض كلها بالأفعال المعنوية كالعلاقات الاجتماعية باختلاف أنواعها، و المادية التي يعمر بها الأرض من صناعات و عمائر و زراعة و فنون مختلفة.

و إذا كان الإيمان قاعد الإسلام فإن جوهر الإسلام التوحيد؛ توحيد الله عز وجل؛ توحيد الذات و الصفات و الأفعال، فالله جل و علا هو محور الوجود، فوجوده وجود كامل مطلق يتصف بالحياة و العلم و القدرة و الإرادة¹، هو الأول ليس قبله شيء، و الآخر ليس بعده شيء، الظاهر فليس فوقه شيء، و الباطن فليس دونه شيء، الواحد الأحد الفرد الصمد، الحي القيوم، هو أصل الحق و الخير و الجمال و الجلال، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ الشورى 11.

هو الخالق لكل الموجودات غيره، المبدع لها على غير مثال سابق، ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الحشر 14، ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ الأنعام 102، المقدر لها بقدر معلوم ﴿وَإِنْ مِّنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ الحجر 21، المسير لها إلى قدر معلوم، فهو الإله الأوحد الذي لا معبودة

¹ - أنظر: محمد المبارك، نظام الإسلام العقيدة و العبادة، ط2، دار الفكر، ص49.

بحق سواه، لا يتحد وجوده مع مخلوقاته فيحل فيها ، و لا يختلط وجوده بوجودها فيتجسم في شيء منها، لا يحده الزمان و لا المكان، بل هو مطلق من الزمان و المكان، لا نهاية لوجوده، و الوجود كله ينتهي إليه.

من هذا المنطلق ندرك أن ثنائية الوجود **طرفها الأول** و الأساس هو الله عز وجل، الخالق الأوحد الذي ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ الإخلاص 4/1، و بالتالي فلا شيء في الوجود غير الله منزه عن النقص، منزه عن الزمان، منزه المكان، من ثم لا أحد غيره يستحق التقديس و التمجيد و العبادة.

و **الطرف الثاني** هو المخلوق، أو المخلوقات كلها بتعدد أنواعها و اختلاف أجناسها، من الإنسان و الكون و سائر المخلوقات الأخرى، كلها مخلوقة لله عز وجل تستمد وجودها من وجوده و كمالها من كماله و جمالها من جماله، تؤدي وظائفها بأمره و إرادته و تقديره، لا يختل نظامها، و لا يزيد عن مقداره و لا ينقص ميزانه.

و من ثم فهي عابدة لجلاله مسبحة بحمده، لا قداسة لها و لا عظمة و لا رفعة إلا بما جعلها الله له كما جللاه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ﴾ الأعراف 54 وقوله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة 30.

إن لهذه الحقيقة دورا أساسيا في بنية العقل المسلم، إذ استيعابها يفسر لنا التوجهات التي سلكها ليس فقط الفنان و المعمار المسلم، بل و توجه الفكر الإسلامي عامة في علم الكلام و الفلسفة الإسلامية، و علم الاجتماع و التربية، و الفنون، و الهندسة، و الفلك، ... إلخ، لأن مبدأ التوحيد هو الذي أعطى ذلك الفكر هويته و خصوصيته الحضارية².

التعبير عن حقيقة المطلق الله عز وجل ضرب من المستحيل لأنه كما أنه فوق طاقة العقل إدراكه فإنه فوق طاقة الوجدان إدراكه، لذلك فالتعبير الفني عن هذه الحقيقة أو عن الشعور الوجداني بهذه الحقيقة، أي كيف تقع هذه الحقيقة في الوجدان المسلم فيعمل الفنان على نقلها أو التعبير عنها في أشكال فنية مختلفة، هو مجرد محاولة للتعبير عن التصور الوجداني التقريبي لهذه الحقيقة بأسلوب جمالي فني، بما استطاع الفنان أن يمتلكه أو يبدعه من

² - أنظر: عفيف بهنسي، خطاب الأصالة في الفن و العمارة، ص16، إسماعيل راجي الفاروقي، جوهر الحضارة الإسلامية، مجلة المسلم المعاصر ، عدد 27، سنة 1401هـ-1981م، ص9-10.

وسائل طوعت أو بمعنى أصح-في تقديري- ذلت له منهج التعبير عن هذا الوجدان الشاعر بحقيقة المطلق، «...والمهم أن هذه الألفاظ الموضوعية استحدثتها الناس لمفاهيم مادية أو معنوية مارسوها و ألفوها، و من هنا فالجاء بهذه الكلمات للدلالة على أمور مغيبة ليس إلا من قبيل التقريب للذهن، و لا يمكن أن تكون هذه العبارات التي صنعناها نحن بياناً للمحسوسات أو المعقولات المأنوسة لنا في عالمنا وصفاً حقيقياً لعالم ما وراء المادة. على ضوء هذا الملحظ نفهم حديث أي لغة عن الله جل شأنه، و عن صفاته العليا، إن الأمر لا يعدو تقريب الحقائق المطلقة لوعينا المحدود. و الله أكبر من أن تحيط بعظمته عقولنا، أو تستوعب كمالاته أقدارنا. و قد اتفق المسلمون سلفهم و خلفهم على ذلك، و لكن اختلفت مناهجهم في التنزيه و التمجيد.»³

الحقيقة الثانية التي تنبثق من الأولى هي العبادة، فإذا كان التوحيد قد شكل أساس بنية العقل المسلم، فقد كان له كذلك أهمية كبرى في صياغة وحدة الكيان البشري و صيانتها من التشتت و التفرق، إن في القصد و التوجه بالعبادة، أو في السعي و العمل.

أما القصد و التوجه بالعبادة لله وحده لا شريك له لا في الشعائر وحسب و لكن في حركة الإنسان الشاملة على هذه الأرض و سعيه الحثيث لتعميرها و هو ما تلخص في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ الأنعام 162، يقول سيد قطب: «إنه التجرد الكامل لله...إنها تسيحة «التوحيد» المطلق، والعبودية الكاملة، تجمع الصلاة والاعتكاف والحيا والممات، وتخلصها لله وحده. لله «رب العالمين» .. القوام المهيمن المتصرف المرابي الموجه الحاكم للعالمين.. في «إسلام» كامل لا يستبقي في النفس ولا في الحياة بقية لا يعدها لله، ولا يحتجز دونه شيئاً في الضمير ولا في الواقع.. «وبذلك أمرت» .. فسمعت وأطعت: «و أنا أول المسلمين»⁴.

و في قوله تعالى "و بذلك أمرت" أي أن هذه العبودية المطلقة أو -إذا جاز التعبير منهج العبودية- ليس أمراً متروكاً لمحض اختيارنا، بل هو مراد الله منا واجب التنفيذ لمن أراد أن يكون مستسلماً لله حق استسلامه، لا يشرك معه أحداً في العبودية بمعناها الشامل.

و أما أهميته في السعي و العمل، فيتبين من خلاله أن الإنسان لم يخلق عبثاً، بل خلق لمهمة جلييلة، استحق لأجلها التكريم من الله عز وجل و هو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة 30.

³ - محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ط4، مصر: دار تحضة مصر، 2005م ص37

⁴ - سيد قطب، في ظلال القرآن، ط17، بيروت-القاهرة: دار الشروق، 1412هـ، ج 3، ص1243. الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن ج 7، ص

إنه من بين أهم المعتقدات المنبثقة من التوحيد التي كان لها الدور الأمثل في حياة المسلم العملية من حيث استثمار وجوده في الأرض تعميرا و بناء و إتقان كافة الصنائع التي مارسها عقيدة العبودية لله عز وجل التي تهيمن على وجوده كله، ذلك أن الإنسان لم يخلق عبثا، و أن سعيه الدؤوب في الأرض له غاية قصوى و بعيدة هي الوصول إلى رضا الله عز وجل، و من ثم فإن حركته التعميرية - وهي المهمة التي نيظت به دون سائر المخلوقات ﴿ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ الأنعام 132- كلها من صميم عبادته لربه الكريم و مناجاة لجلاله العظيم، و لذلك فهو في صلاة دائمة تحقيقا لقوله عز وجل ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الصفات 56، و هو إذ يفعل ذلك أولا يوحد بين الديني و الدنيوي، إذ لا مجال في ظل عقيدة التوحيد للفصل بين الصلاة و الحياة، كما أنه لا مجال فيها للفصل بين متطلبات الجسد و بين متطلبات الروح عند الإنسان، لذلك يشعر بعظمة نفسه و رفعة و تكريمه، ذلك « إن الإنسان في صلاته، و هي رأس العبادات، يشعر أنه متجه إلى المطلق، متجاوز لقيود الزمان و المكان، مهيمن عليهما بما استشرف من عظمة المقصود بالعبادة، فحصل له بذلك شعور بالسمو، و إحساس بتفوق الذات في المحيط الكوني.»⁵

و هكذا فالعبادة بمفهومها الواسع لا تتلخص في الصلاة الموقوتة بوقت معلوم و بكيفية محددة، فالصلاة هي المظهر الشعائري من العبادة، و تبقى جزئية ما لم يكملها المظهر الاجتماعي و المظهر العملي⁶، و هي جميعا محط نظر الله عز وجل، و أعلى مراتب الدين الذي يدل عليه حديث جبريل الشهير: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»⁷ و من ثم فقد أصبحت رمز التعالي و الارتقاء و السمو إلى الكمال البشري الذي يهيئ صاحبه و ينقيه استعدادا للقاء الكامل في ذاته و صفاته، المطلق في جماله و كماله و جلاله ذلك أن الناقص لا يلتقي بالكامل، حتى يكمل نقصه البشري أخلاقا، و أعمالا تؤهله لنيل شرف اللقاء بالكامل المطلق، و هو ما يوحي به قوله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ الأعراف 32، فما دام في صلاة دائمة فلا مناص من أن يهيئ لها من الزينة التي تليق بمن تقام له .

إن هذا الإيمان بعظمة العبادة و شمولها مناشط الإنسان كلها، هو الذي حول للمعمار المسلم أن يجعل من العمارة التي يشيدها، صلاة يتعبد بها الله عز وجل فراح بكل ما أوتي من براعة عقلية و فنية مكنته من استيعاب لما هو غائب عنه من الحقائق خاصة حقيقة التوحيد من اختراع العناصر التي تحقق له التعبير عن ذلك الاستيعاب

⁵ - عبد المجيد النجار، قيمة الإنسان، ط 1 الرباط، دار الزيتونة للنشر، 1996-1417 هـ، ص 35.

⁶ - أنظر بالتفصيل: ماجد عرسان الكيلاني، فلسفة التربية الإسلامية، ب، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1998-1419 م، ص 56.

⁷ - رواه مسلم

و قد تجلى ذلك بشكل واضحاً جداً خاصة في المسجد؛ وهو ما خلص إليه جارودي من تجربته الخاصة التي قادته لزيارة معظم المساجد في العالم الإسلام فسجله في مقولته الشهيرة : " لقد أمكن القول أن كل الفنون في البلاد الإسلامية تؤدي إلى المسجد و المسجد إلى الصلاة، و لا مندوحة لي من أن أشهد من تجربتي الشخصية: ذلك أنني انطلاقاً من تأمل فنون الإسلام و مساجده إنما شرعت أفهم العقيدة الإسلامية بتأكيداتها الجذري على التعالي.⁸"

و من منطلق هذه المفاهيم الأساسية في العقيدة الإسلامية و التي تشرتها نفس المعمار المسلم، بات- بمقتضى الانسجام و التكامل مع الذات و التناسق مع الكون الذي يغرد معه تغريدة التسبيح لله عز وجل-، يعمل في صناعته على أن يحقق مفهوم العبادة بذات المنهج الذي ينبثق من مفهوم توحيد الله في التوجه و القصد و العبادة و العمل.

يقول عماد الدين خليل : "ليس التوق للعلا فحسب، و لكنه الامتداد صوب اللانهاية.. الانتشار في الآفاق كذلك.. فهي إذن الحركة الثنائية التي جاء بها هذا الدين لكي يحمل بها الإنسان إلى فوق و إلى الآفاق.. إلى الله و إلى العالم .. و تلك هي الوظيفة الفنية الصعبة التي اجتاز المسجد التعبير عنها بنجاح!"⁹

و قد استطاع بكل براعة أن يحقق هذا المنهج التعبدي في المعمار الذي شيده، في أوجه مختلفة: 1- العناصر المعمارية التي أبدعها في النماذج المختلفة من العمائر التي بناها؛ كالمئذنة أو الصومعة، القباب، المحراب الصحن، و إنشاء المئذنة و القبة المحراب، ثم السماح للخيال و اليد أن تتفنن في تشكيل تلك المناجات بما استحدثه الفنان من فن الزخرفة التي تغطي مساحات كبيرة و التي بلغت من الدقة و التنوع إلى درجة أن العناصر المعمارية الأخرى كانت ثانوية بالنسبة إلى تلك الزخارف الدقيقة و لا سيما ما كان منها محفوراً في الجص أو مصنوعاً منه.

ثانياً: إفرات الإيمان في العمارة الإسلامية

كما كان للإيمان مرتكزات شكلت ذات المعمار و روحه و معتقداته و أفكاره، فكذلك له إفرات سلك بدافعها أسلوباً ومنهجاً في تشييد عمارته و إخراجها بتلك التي تحسسها ليس المسلمون فقط الذين تشبعوا بذات المبادئ و الأسس التي تشكلت على قواعدها العمارة، و لكن حتى غير المسلمين الذين لم يتشربوا تلك الروح، و إن لم تخفى أثارها عليهم.

8 - روجيه جارودي، في سبيل حوار الحضارات، تعريب: عادل العوا، بيروت، عويدات للنشر و الطباعة، ص 6

9 - عماد الدين خليل، الفن و العقيدة، ط1 بيروت: مؤسسة الرسالة، 1990-1411هـ، ص44.

هذه الإفرازات أجملتها في خمس رئيسة هي: التجريد، الوحدة و التنوع، الانتفاع، الإبداع ، الذوق الجميل

1- التجريد: هو تجريد الطبيعة من بعض عناصرها و الاكتفاء بالشكل الجوهرى منها؛ بمعنى أن الفنان في

مثل هذا الأسلوب يعمل على إلغاء الجزئيات الحسية الفانية من الطبيعة، بشرية أو كونية، حتى لا يحتفظ منها إلا

بالمعنى ، أو الشكل الجوهرى، ثم بعد ذلك يعيد صياغة ذلك الجوهر الثابت في الشكل و بالمعنى الذي يريده.¹⁰

و الفنان إذ يقوم بإعادة الصياغة فنيا بما يناسب غايته المتوخاة يلتزم بمبدأين اثنين يعتمد عليهما هذا

الأسلوب الفنى في التعبير.

- تصحيف الواقع: " أي تحوير معالمة الخاصة و تعديل نسبه و أبعاده و فق مشيئة الفنان."

- تغفيل الشكل: " أي الابتعاد عن تشبيه الشيء بذاته إلى تمثيل الكلي المطلق".

صفة التجريد إذن هي أكثر ما اتفق الباحثون عليه من خصائص مميزة للفن الإسلامي ، أي أنهم جميعا

متفقون على أنها إسلامية بحتة، و لكنهم اختلفوا على سببها¹¹ ، بعضهم ذهب إلى تحريم تصوير المخلوقات و

بالتالي الابتعاد عن التحريم أدى إلى التجريد.

و الرأي الثاني: أن التجريد وسيلة الفنان المؤمن للتجرد من الخلائق و وصولا لجلال الخالق سبحانه و تعالى.

الرأي الثالث: أن التجريد نتيجة لتجنب التصوير التمثيلي، أي البعد عن التمثيل كصفة سلبية إلى التجريد كصفة

إيجابية.

و رجح رأيا رابعا هو: أن التجريد في الفن الإسلامي هو استمرار لصفة التجريد و الابتعاد عن تمثيل

المخلوقات، السائدة في الفنون السامية و ما قبل الإسلام عامة و فنون الرقش التي وجدت في الجزيرة العربية قبل

الإسلام بصفة خاصة.

و إنني انطلاقا من هذا الرأي الأخير الذي أراه أكثر قوة، و إن كانت الآراء السابقة جميعا فيها وجه من

الصواب-حسب رأيي-، فالتجريد و إن يكن صفة سائدة في الفنون السابقة، فإن استمراره في الفن الإسلامي

دليل على وعي الفنان المسلم بأنه الأسلوب الأمثل في التعبير عن الوجود من وجهة نظر إسلامية.

لقد شكلت الطبيعة، الكون بالتعبير القرآني، مجالا خصبا للوصول إلى كثير من الحقائق، و التي على رأسها و

من أهمها توحيد المولى عز وجل، و هو ما نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿سُنُّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي

¹⁰ - الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، ص578 و ما بعدها، و نظرية الفن الإسلامي، مجلة المسلم المعاصر ، ع25، ص ، صالح الشامي، الفن

التزام و ابتداء، ص ، عماد الدين خليل، الطبيعة في الفن الغربي و الإسلامي، ط2، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1401هـ/ 1981م، ص 42.

¹¹ - أنظر أسامة الفقايش، مفاهيم الجمال رؤية إسلامية، ط1، القاهرة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1417هـ-1996م، ص 38-39.

أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿53﴾ فصلت 53، ثم إذا حاولنا التعمق أكثر في الكيفية التي سيتمكن من خلالها المسلم عموماً الوصول فعلاً إلى الحق نجد أنه استعمل الفعل رأى "سنريهم" و هو متعد إلى مفعول واحد فتكون الرؤية هنا رؤية العين، في الآيات الأخرى نجد أن الله عز وجل لما ينظر إلى عمل الإنسان على هذه الأرض باعتباره مكلف بالتعمير، يهتم لا بالعمل ذاته، و لكن بالكيفية التي أنجز بها ذلك العمل، من ذلك على سبيل المثال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ البروج 6، ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ الغاشية 17، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام 99 ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ يونس 14، ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ الأعراف 129 .

إن نفي القدرة على الخلق لغير الله جعل الإنسان ينأى بنفسه أن ينشغل بفكرة نقل الطبيعة أو استنساخ صور منها لعلمه ألا جدوى من فعله هذا، بل الأجدر به أن يعمل على إثبات وجوده الفاعل على هذه الأرض التي جعل فيها ليعمرها بما يؤهله للعيش فيها، أي أنه يعمل على خلق الحياة المناسبة و الجديرة بذلك الإنسان الكريم على هذه الأرض من جهة، و التي ستعرض -من جهة أخرى- على الله عز وجل فينظر في الكيفية التي التي تم بها الإنجاز، و هل مقبولة أم غير مكافئة لذلك التكليف العظيم.

إذن فالله جل شأنه لما استخلف هذا الكائن في الأرض ليس من أجل أن ينظر في مخلوقات فيقلدها و يحاكيها و أنى له ذلك، بل إن الله دعاه للتأمل فيها؛ في سننها و قوانينها ليكشف عن كيفية نظامها، و انسجامها و دقة خلقها لمحاولة التناغم و التفاعل و النسج على منواله.

إن الفنان و المعمار إذ يعتمد إلى التجريد ينطلق من رؤية معرفية مفادها أن الطبيعة التي خلقها الله و بث فيها سر الخلق تموت بالتشخيص، في حين أن دعوته له إلى تأمل الطبيعة دعوة إلى تأملها حية و متحركة بتأمل السنن و القوانين، بتأمل التناسق و التناغم بين مفرداتها، بأمل فاعليتها المستمرة، من ثم كان استلهامه أسلوب التعبير التجريدي عن تلك الرؤية من خلال المواد الخام التي تقع تحت يده، سواء كانت طبيعية كالحجارة و الخشب و المعادن و غيرها التي يعيد تشكيلها فيعطيها مظهراً جديداً لم تكن عليه في أصلها و طبيعتها، كالنقش على

الجدران و على الأبواب و صنع المقرنصات...، ذلك المظهر الجديد الذي يتلاشى فيه المظهر القديم حتى لكأنه لم يعد له وجود بعد العمل الذي تم فيه. أو **تكميلية** تزيينية كالزخرفة بمختلف أشكالها؛ النباتية و الهندسية و الخفية...، و هو ما بينه الفاروقي بدقة و تفصيل في حديثه عن خاصية التجريد من خصائص العمارة حيث عدد من أصنافه خمسة رئيسية و هي¹²: الطلاء أو التلبس، تغيير مظهر المواد، تغيير مظهر البنى، تغيير مظهر الكنَف، تغيير المظهر أو الوظيفة، و هو ما يزيد من روعة البناء بعناصره المختلفة ما يجعله آية من الآيات الدالة على تحقق وجود الإنسان و فاعلية في الأرض.

2- الوحدة: لقد كان لتلك القاعدة الإيمانية إفراز لعنصر مهم لم تخل منه العمارة الإسلامية كما لم يخل منه الفن الإسلامي بصفة عامة وهو عنصر الوحدة و التنوع؛ أما من حيث الوحدة: ففي العمارة الإسلامية لا فرق بين الديني و الدنيوي؛ و أكثر ما يظهر في عمارة المساجد ذاتها، و لأهميته و الجامع منه خاصة فقد حضي باهتمام كبير من الملوك و الخلفاء و الفقهاء، إذ كان أول ما تبنى المدينة يشيد على رأس منشآتها المسجد - و هو ما عبر عنه السلطان السلجوقي طغرول بك في مقولته الشهيرة: «أنا يجب أن أشعر بالحنين للمثول أمام الله إذا بنيت لنفسي قصرا و لم أقم أمامه مسجدا»¹³ - و هكذا كانت المدن الكبرى التي تعد مركزا حضاريا لا تعرف إلا إذا كان بها مسجدا جامعاً، بل انه لا يطلق اسم المدينة و صفتها إلا على الحضر التي بها مسجدا جامعاً، و لذلك جعله المقدسي من أهم معالم و مقومات المدينة الإسلامية... و سائر المدن على ما ذكرنا و ههنا قرى كبار لا يعوزها من رسوم المدن و آلتها إلا الجامع»¹⁴

ثم إنه في سائر المدن و العواصم الإسلامية قلب المدينة النابض، و قلب الأمة بأسرها، منه تتفرع كل الطرقات و مختلف أطرافها حتى أصبح بمثابة القلب من الجسم لأنه لم يعد فقط بيت لإقامة شعيرة الصلاة، و لكن مركز إشعاع حضاري و فكري للأمة الإسلامية، فيه يذكر الله و يقرأ العلم و يقضى القضاء و يقصده كل من دخل المدينة أول مرة و غيرها من المهام الأخرى...

كما تتجلى الوحدة في عناصره المعمارية، فما من مسجد، إلا و تضمن ذات العناصر المعمارية إما وظيفية، كالصحن الذي يصل بين الأرض و السماء، وقاعة الصلاة أو بيت الله، أين تقام الصلاة، المحراب الذي

¹² - إسماعيل و لمباؤ الفاروقي،، أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمه: عبد الواحد لؤلؤة، [دط] ، الرياض مكتبة العبيكان ،1418، ص 576-597.

¹³ - jonathan bloom, Minaret simbol of Islam, Oxford: university press, 1989, p 166

¹⁴ - شمس الدين محمد المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط2، بيروت دار صادر، ص 282، آدم متر، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة، تعريب، محمد عبد الهادي، ط5، بيروت: دار الكتاب العربي، ج2، 269/268، مجلة عالم الفكر ، المجلد 10، العدد 2، يوليو أغسطس، 1979، ص55.

يتوسط حائط القبلة، منبر الجمعة، إضافة إلى القبة و المئذنة اللتان تشكلان في المسجد من خارجه، سمة المساجد الدلالة و الجمالية .

أو إما عناصر فنية تجميلية ووظيفية في الوقت ذاته لا يخل منها مسجد، من أعمدة و أقواس و مقرنصات و القباب و المداخل و المحاريب و النوافذ...الخ

إننا روح واحدة تسري في مساجد العالم الإسلامي هذه الوحدة التي لم تخفى ليس فقط على المشاهد المسلم بل و إنما أصيلة إلى الحد الذي تُكشف فيه دون عناء لمن تنقل بين أرجائها و إن كان لم يعرف الإسلام أو يعرف روحه و هو ما عبر عنه جارودي في قوله: «إن نظرة و لو سطحية على الفن الإسلامي في العالم تبيّن وحدته العميقة فحينما نتمعن النظر في أي بناء نتطلع إليه فإننا نشعر بالتجربة الروحية نفسها تعيش فيه بالنسبة لي - يقول- من مسجد قرطبة الكبير إلى جوامع تلمسان الصغيرة و إلى مسجد القرويين في فاس أو مسجد ابن طولون في القاهرة، و من جوامع اسطنبول العملاقة إلى قباب مساجد أصفهان الفردوسية و المئذنة الحلزونية المتقشفة في سمراء و من غرناطة إلى قصور كابو و شيهيلسوتون في أصفهان، فإنني كنت دائما أشعر، و بشكل حي، ان كل هذه المباني قد بناها شخص واحد من الإيمان ذاته و تلبية لدعوة إله واحد.»¹⁵ ، بل إنه يذهب أبعد من ذلك عندما يصرح يستطيع الكشف عن العقيدة التي تولدت منها هذه الوحدة في المعمار الإسلامي.

أما التنوع فيتمثل في الزخارف المتنوعة التي لا يكاد موضع بالمسجد يخل منها، و غايتها إظهار البناء بأبهى حلة، بحيث يأخذ الجمال مكانه في كل عنصر سواء أكان معماريا أم تزيينيا .

و هي قسمان: أحدهما يدخل في تشكيل العناصر المعمارية نفسها؛ كأشكال المحاريب و المنبر و القبة المحراب و الجدران و الأعمدة و العقود و القباب و النوافذ....

و أما الثاني فتزيني محض، فالزخرفة بمختلفة أنواعها الخطية و النباتية و الهندسية، و المداخله أحيانا بألوان و أشكال غاية في الجمال ، الفسيفساء و الرخام و السيراميك و الخزف، و الخشب، و أشكال المقرنصات ...إلخ و التي تنوعت و اختلفت باختلاف المدارس و الطرز المعمارية التي نشأت على امتداد رقعة العالم الإسلامي على مر التاريخ، فكان ذلك التنوع دليلا على الانتساب إلى زمن أو بلد.

3- الانتفاع: من أهم قيم الإسلام - منهج الحياة الكامل - ألا يكون عمل الإنسان مهما كن نوعه، علميا أو صناعيا أو فنيا... إلخ غير ذي فائدة، سواء كانت هذه الأخيرة لصالح الفرد أو لصالح الجماعة أو لهما معا، دنيوية كانت أو أخروية، مادية أو روحية، لذلك نجد من المباحث الأساسية التي بذل فيها العلماء المسلمون جهودا كبيرة استخراجا لها من نصوص الوحي هي مبحث المصلحة الشرعية الإسلامية باعتبارها الأساس الذي تبنى عليه جميع أحكامها.

و المنفعة التي هي مرادف المصلحة، مطلب فطري ينزع الإنسان إلى تحقيقه في أي عرض يتوخاه أو أي عمل بإنجازه، سواء كانت تلك المنفعة المبتغاة حقيقية أم وهمية، و هو ما نلمسه في حديث الرسول صلى الله عليه و سلم «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»¹⁶، و دعائه في موضع آخر: «اللهم انفعني بما علمتني، و علمني ما ينفعني و زدني علما و الحمد لله على كل حال»¹⁷، دلالة على ضرورة اقتران كل ما يقوم به المسلم من أعمال بالانتفاع. فكلمة علم في الحديث جاءت نكرة و في ذلك دلالة على أنه لا يقصد علما بذاته، و لكنه كل ما يتعلمه الإنسان في حياته.

و سؤال الوقاية من تعلم ما لا فائدة منه لما في ذلك من الضرر ينجم عنه تضييع الأوقات و الجهود و الطاقات فيما لا يعود بالخير العام على الفرد نفسه أو على أمته، و هو المكلف بعمارة الأرض و الخلافة فيها، و يقتضي ذلك منه تسخير كل الطاقات و الأوقات و كل الوسائل المباحة و الخبرات المكتسبة لتحقيق هذه الغاية التي من أجلها خلق.

و يؤكد على ذلك الحديث الثاني عندما يسأل الله أن يجعل كل ما يتعلمه الإنسان نافعا، و ذلك لاستثماره في بناء الحياة و تعميرها، و لأن هذا البناء و التعمير يستفرغ كل علمه، فإنه يسأله زيادته، إذ كلما علم و اكتشف قدرة الله و عظمة خلقه أدرك أن علمه كنقطة في بحر لا شطآن له ينبغي أن يغرف منه ما استطاع لينفع به قدر الإمكان.

من هذا المنطلق كان مبدأ الانتفاع من أهم إفرازات مبدأ التوحيد، و العبادة فحيث أن المسلم خلق لتعمير الأرض و الله تعبدنا بهذا التعمير، فقد بات من المؤكد أن العمارة التي هي صنعة المعمار و فنه هي العبادة التي يناجي بها ربه محاكيا فيها لا الطبيعة ذاتها، فينتج لنا نسخة ممجوجة فاقدة لحيويتها و حركيتها المستمرة و بالتالي يرمي بها إلى الفناء، و لكن يحاكي الفعل الإلهي فيها ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ

¹⁶ - صحيح مسلم: كتاب الذكر و الدعاء و التوبة و الاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، ج4، رقم73، ص2084

¹⁷ - ناصر الدين الألباني، صحيح سنن ابن ماجه، ط2، الرياش: مكتب التربية العربي لدول الخليج، 1987م-1408هـ، ج1، رقم203، ص47.

اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ النمل 88 الذي منحها الحياة و أسبغ عليها من التقدير و النظام و الدقة في الخلق و الزينة ما جعلها تؤدي وظائفها ، و تشهد على جلال بارئها و جماله و كماله في الوقت ذاته.

و إن النظر في العمارة الإسلامية يجعلنا نخلص من غير كثير عناء إلى هذه القيمة، على أن المعمار المسلم تشرب هذه القيمة حتى اختمرت في ذاته فراح و هو يصمم منشآته يجعل لكل موضع فيها له قيمته و فائدته؛ فلو أخذنا المسجد مثلا -باعتباره السجل الذي سطرته فيه تطورات العمارة على مر التاريخ، و تعاقب العصور- ، لوجدنا كل عنصر فيه سواء كان داخلا في صميم العمارة، أو كان عنصرا تزيينيا، له وظيفته، فقاعة الصلاة المغطاة مصممة بشكل يمتد عرضا يقابل حائط القبلة كي يستطيع أكبر عدد من المصلين الوقوف أمامه، المحراب و إن اختلفت آراء العلماء في وظيفته¹⁸ فإنه في أقل تقدير المكان الذي يصلي فيه الإمام و يستقبل القبلة ، المنبر الذي يصعد عليه الإمام في خطبة الجمعة و الأعياد ليراه جميع الناس، القبة التي ترفع السقف العالي و تخفف من ثقل مادة البناء، و قد كانت في بدايتها قبل أن تصبح عنصرا تحسينيا، تستخدم لامتناس الجو الحار الذي يرتفع إلى أعلى، و زيادة حركة الهواء¹⁹ ، و كذلك النوافذ التي تفتح فيها كمصدر للنور، الأعمدة و الأقواس التي تبدو كأها عنصر تجميلي تحسيني هي في الأصل وظفت لحمل الأسقف... الخ

و ليس هذا مقصورا على المساجد وحسب، بل إنه عام في المنشآت و المرافق الاجتماعية الأخرى ، كالبيوت و الحمامات، و البيمارسيتانات، و القصور و القلاع... إذ تحقق فيها المبدأ ذاته، ففي الحمامات مثلا جعل المعمار تصميمها يقوم على أربع غرف²⁰ ، غرفة لنزع الملابس، و ثلاث غرف أخرى للاستحمام الباردة تليها الدافئة ثم الساخنة و في ذلك راعى مصلحة المستحم و صحته، حتى لا يتحول من جو ساخن جدا إلى بارد جدا فجأة و دون تمهيد فيهلك، و كذا البيوت التي دائما كانت تحتوي على صحن الدار الذي يصل قاطنيها بالسماء من جهة، و هو مصدر النور و التهوية و قضاء الأغراض الأخرى حيث الدور غالبا ما كانت مغلقة من الخارج خالية من أي عناصر أخرى عدا المداخل أو الأبواب هذه الأخيرة التي لاحظت في شوارع تونس القديمة أنها لها ثلاث مطارق²¹ واحد للرجال و الثانية للنساء و الثالثة في الخوخة²² للأطفال الصغار إذا طرق الباب بواحد منها

¹⁸ - أحمد فكري مساجد الإسلام، ص 60. و أنظر: الشامي، الفن إلتزام و ابتداء، ص 303.

¹⁹ - بركات محمد مراد، الإسلام و الفنون، ط 1، الشارقة، دار الثقافة و الإعلام، 2007م، ص

²⁰ - أنظر عفيف بهنسي، جمالية الفن العربي، الكويت، عالم المعرفة، 1979، ج 14، ص 140-141.

²¹ - أقصد ما يطرق به الباب حتى يسمعه من الداخل

²² - الخوخة الباب الصغير في الباب الكبير

علم من بالداخل الطارق من النساء هو أو من الرجال أو من الأطفال. و كذلك المشربيات التي كانت قلة من البيوت المطللة على الخارج تحتوي عليها صيانة لمن يقف بها فلا يرى من الخارج خاصة من النساء.

و هكذا استطاع الفنان و المعمار المسلم أن يستلهم من الطبيعة قيمة من أهم القيم الحية فيها ، و هي قيمة الانتفاع التي تنزه الله عن العبثية في الخلق ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران 191 و بالتالي جعلته تلك المحاكاة يسم بهذه القيمة معماره التي مكنت له من أن يختمه بخاتم التميز و الخلود في بنية الحضارة الإنسانية موما و الإسلامية خاصة.

4- الإبداع: الشيء الآخر الذي تعلمه المعمار المسلم من عقيدة التوحيد و الذي خلد اسمه في سجلات تاريخ الحضارات الإنسانية هو عدم اكتفائه من الإنجاز بما يتلقاه من عطاءات الآخرين الجاهزة، ليتوقف عندها و ينسخ صفحات مكررة منها، من غير أن تكون له خصوصيته و روحه و احتياجاته المتميزة، التي يصهر من خلالها ذلك الموروث حتى تتلاشى المعالم القديمة و لا تظهر إلا تلك التي فتقت خياله و قدراته الإبداعية لتكون علما على خصوصيته الفنية، وهو ما ذكره جوستاف لوبون من تميز العمارة الإسلامية على غيرها العمارات المغولية أو التركية «حيث نضدوا فيها عناصر الفنون السابقة من غير أن يمزجوا بعضها ببعض، و لكنك إذا أنعمت النظر في المباني العربية كالفصور التي أقامها العرب في الأندلس و المساجد التي أقاموها في القاهرة رأيت العناصر الأولى التي تألفت منها بلغت من التمازج ما يتعذر معه الانتباه إلى المصادر التي اشتقت منها»²³.

و قد عزا تلك القدرة على الإبداع إلى مزاج الأمة الإبداعي، أي إلى المقومات التي تقوم عليها هذه الأمة: «مهما تكن من عناصر الفن التي تصبح قبضتها تضع طابعا الخاص عليها، فإذا كانت الأمة مبدعة أمكن أن تتجلى قوتها الإبداعية في كل شيء حتى في بناء إسطنبول أو صنع حذاء، و إذا كانت الأمة عاطلة من مثل هذه القوة لم تفعل سوى تنضيد عناصر الفن.»²⁴.

إن هذا الذي كشف عنه لوبون الغطاء هو حقا مصدر الإبداع في الأمة الإسلامية ، و قد أمكننا أن نقول بثقة أن ذلك كله ثمرة طبيعية لحديث الإحسان: « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.» الذي كان دور بالغ الأهمية في توجيه جهد المسلم صوب الارتقاء إلى المأل الأعلى، و تحويل نشاطه كله إلى عبادة و ابتهاج و مناجاة للمولى سبحانه عز وجل .

²³ - حضارة العرب، تعريب: عادل زعير، [نظ] [دب]، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ص503
²⁴ - المرجع نفسه.

5- الذوق الجميل في الإبداع: غالبا ما يلهي الاهتمام بالقيمة النفعية عن القيمة الجمالية و لذلك جعل

الله عز وجل الآيات التي يدعوننا لتأمل جمالها غالبا- إن لم يكن دائما -فيها القيمة النفعية جلية، فيحسنا فيها لا لتأمل منافعها و لكن لتأمل الجمال فيها كقيمة ذاتية مستقلة عن القيم النفعية كقوله تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ الأعراف 25، ﴿وَالْحَيْلَ وَالْبِعَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ النحل 8، ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ النحل 6/5 ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ الحجر 16 و في ذلك تربية للذائقة الجمالية الكامنة في أعماق الفنان و التي تدفع به إلى سلوك الجمال قولا و فعلا و إنجازا، معلمة إياه أن الحياة لا تتوقف عند القيم النفعية و المصالح الضرورية البحتة، بل تتعداها إلى تغذية الروح، و إشباع الوجدان بالاستمتاع بالجمال، و المناظر الجمالية التي جعلها الله للناظرين، ذلك الجمال الذي يعطي للحياة رونقها و سناها، و للأشياء حسننها و بهاءها، و هو دليل على أن الإنسان فطر على حب الجمال و في نفسه شغف به، لذلك فهو تواق للبحث عنه أينما وجد، كما أنه لا يدخر جهدا أن يزين به كل ما مقتنياته، و لم يجعل فنه هذا مقتصر على عظام المنشآت بل كان فنه يعيش معه في حياته في مأكله، و مشربه، في جلوسه لراحته، و في سياحته، في سلمه و في حربه، غي محرابه كما في معمله، كان يأخذه معه أينما ذهب، و هذا ما يجعلنا نحكم بأن المعمار خاصة و الفنان عامة كان يتمتع بذائقة فنية عالية، و أن القيمة الجمالية و الفنية لها بعدا عميقا و أصيلا في نفسه لا تنفك عنه .

و لم يغفل الفنان المسلم عن هذه التربية الذوقية الجمالية التي فتقت خياله و براعته الفنية المتشعبة بقيم التوحيد بابتكار أروع ما تميز به الفن المعماري و هو الزخرفة الإسلامية بأنواعها المختلفة النباتية و الهندسية و الخطية التي زينت بها معظم عناصر العمارة الإسلامية سواء ما كان منها داخلا في تشكيل العناصر المعمارية من تيجان و أعمدة و قباب و محاريب و نوافذ...أو ما كان منها زخرفة تجميلية محضة كزخرفة المنابر و الجدران و القباب و المنارات، و كالزخرفة الخطية، و النقوش و الألوان و الفسيفساء و الرخام... إلخ، في تناسق و انسجام و تناغم عجيب جعل من المباني التي تحلت بها تحفا و روائع تفردت بها الحضارة الإسلامية .

يمكنني هنا أن أمثل برأي احد المهتمين بالفن الإسلامي و الذي كانت له خلاصة -في تقدير- رائعة على قيمة الفن الإسلامي قال فيها: « ... إن الذي جعلها (الفنون الإسلامية) متفردة هو أنها استطاعت أن تبين أن

الماء يكون أحلى حين يشرب في كأس جميل، و أن الضوء يكون أكثر إشراقا حين ينبعث من شمعدان نفيس مرصع بالصور. و أن المؤمن يتبدل حاله حين يدخل مسجدا عن طريق بوابة مقرنصات.²⁵

إن الفنان المسلم لم يكن على اختلاف الزمان و المكان إلا معبرا عن جوهر عقيدته التي تصوغ فكره، فلا فرق عنده أن يعبر عنها في عظيم كتلك المساجد الرائعة الفخمة التي تكاد كل قطعة حجر فيها تصدح مسبحة لله و خاشعة تصلي لذي الجلال، أو يعبر عنها في أكثر الأشياء تداولاً و لو كان طبقاً أو إبريقاً ما دامت الغاية من ورائها جميعاً هي مقام الشهود على وجود الله عز وجل في الأول و الأخير مهما حققت من غاية جمالية أو قيمة نفعية آنية.²⁶

إن الذي نخلص إليه من هذه الورقة البحثية هو:

- إن للمرجعية العقدية ممثلة في الإيمان دور بالغ الأثر لا يقل أهمية عن دور القوانين و القواعد الهندسية و المعمارية و الفنية التي تأسست على قواعدها العمارة الإسلامية.
- فإذا كانت تلك القواعد لا يستغني عنها المهندس و المعمار كقوانين يرسم وفقاً لها تصميماته الهندسية، التي ترفع هيكل العمارة، فإن الإيمان هو القاعدة التي تشكل بنية المضمون الذي يتلبس به هيكل تلك العمارة
- أهم مرتكزات الإيمان التي كان لها -في تقدير- الدور الرئيس في تشكيل البنية الروحية لتلك العمائر هي التوحيد و العبادة؛ التوحيد باعتباره جوهر الإسلام و الحضارة الإسلامية و أساس أركان الإيمان كلها و المحرك الأول لفعالية الإنسان و سلوكه على الأرض، أما العبادة فهي التي تفعل نشاط الإنسان كله و تمنحه القوة و القيمة و السمو الذي يرتقي به إلى المعالي راجياً به القبول عند الله عز وجل.
- هذا الإيمان ذي الطرفين لم يكن مجرد إحساس وجداني عقيم الأثر في العمارة الإسلامية، بل كانت له ثمرات واقعية حقيقية هي التي جعلت للعمارة الإسلامية مكانة و تميزاً بين العمارات الأخرى.
- إن تلك الإفرازات أو الثمرات التي حاولنا التركيز عليها في البحث شكلت كل واحدة منها ميزة للعمارة الإسلامية و شكلت مجتمعة في انسجام و تناغم و تناسق، سمة خاصة انفردت بها العمارة الإسلامية خاصة و الفنون عامة إذ لم تجعل منها فناً متحفياً، بل فناً إنسانياً يرافق المسلم أينما حل أو ارتحل، لا يفرق بين ديني و دنيوي.

²⁵ - أوليغ قرابر، كيف نفكر في الفن، كيف نفكر في الفن، 2، تعريب: عبد الجليل ناظم وسعيد الحنصالي، المغرب الدار البيضاء 1996م، ص

116.

²⁶ - غارودي، المرجع نفسه، ص 139.

- و هذا ما جعلنا نخلص إلى النتيجة الأهم و هو أن الجمال و الذوق الجمالي و الفن لهم قيمة خاصة في التصور الإسلامي، مستقلة عن باقي القيم الأخرى لهما دور رئيس في ترقية الإنسان و السمو به من تحقيق ضرورات الحياة و احتياجاتها إلى مرتبة التحسينات و الكماليات التي ترتقي بإنسانية الإنسان و تبث فيه الروح و الحياة التي لا وجود حقيقة للكائن بدونهما.